

تأثير اللّغة العربيّة في اللّغة العبرية

الدكتور التجيني بن عيسى

قسم اللّغة العربيّة وآدابها جامعة تلمسان

يزعم كثير من الباحثين الأوروبيين أنّ. اللّغة العربيّة اقتبست خلال نشأتها وفي مراحل مختلفة من تطورها عددا كبيرا من الألفاظ العبرية. فقد اشتقت أو استلهمت من المعجم العبري ما دلت به عن مناحي حياتها الاجتماعية الثقافية والدينية والأدبية. فلفظ الجلالة (الله) العبري مأخوذ من اللّغة الآرامية (وهي من أصل العبرية)، وقد اشتقت من اللفظة (ألاها) ومعناه (الله)¹. وقد أدى بهم هذا الزعم إلى أن صرّحوا بأنّ هذه اللفظة مجرد لقب تماما كما أنّ كلمة "رئيس" و"ملك" و"قاض" هي أيضا لقب² ... ويرون أن اللفظ العبري (مسجد) مستوحى من الآرامية كذلك وكانت هذه اللّغة منتشرة في صحراء سوريا³. كما يذهبون إلى أنّ لفظة (فرقان) العربيّة مشتقة هي الأخرى من الكلمة الآرامية (porgan)⁴. وكذلك لفظة (صلاة) و(مذبر) (الباري) ... الخ. وواضح أننا لسنا في مجال حصر هذه الألفاظ أو في ضبط المصادر المختلفة التي وردت فيها. ولكنّ الملاحظ أنّ هؤلاء الباحثين على اختلاف آرائهم، قد نسبوا المئات من الكلمات العربيّة إلى اللّغة الهندية الأوروبية عموما والعبرية وفروعها بوجه

¹ دائرة المعارف الإسلامية: مقال المستشرق مالكدونالد-الله 558/2.

² الحق الذي يقود إلى الحياة الأبدية watchtower bible and tract society of new yourk الولايات المتحدة الأمريكية 17-1969.

³ Article et conférence : william- marcais- librairie d'amerique et d'orient paris 1961 .

⁴ Mahomet : maxime rodinson edition du seuil paris-1961-p 201 :

خاص. بل لقد عمدوا إلى تحريف عدد هائل من الكلمات ذات الأصول العربية، عن مواقعها بالعبرية دون إمعان نظر في مادتها واشتقاقها واستعمالها. وهو أمر ينمّ - في رأينا - عن جهل شارحي هذه الألفاظ بأحكام اللغة العربية وقواعدها واستعمالاتها وأساليبها.

ومن الطبيعي أن نسبة الألفاظ العربية لم يصدر عن تحقق علمي دقيق ولم ينبع من شغف معرفي يتوخى الأمانة العلمية وصدق البحث النزيه، وإنما هي محاولة ترسيخ فكرة طالما ردها العلماء والباحثون والكتاب الأوروبيون منذ أن شرع في دراسة العبرية.

لقد كان من "الكفر" أن يجادل في مسألة أصالة هذه اللغة، وكان للربان وآباء الكنيسة دور جوهري في تمكين هذه الفكرة في عقول الناس وتأكيدها في النفوس على عنها اللغة الأولى والينبوع الطبيعي الذي تفرعت عنه لغات العالم كلها. فذكر الورخ جوزيف (josephe) ان هذه اللغة كانت منتشرة قبل الطوفان . ورأى كلوف.ديريرت (claud duret) أنّ الملائكة تتشد. مزامير داود بهذه اللغة. ثم جاء بعدهما القديس جون كريزيستوم والقديس أغوستين والقديس جيروم وبوشار وبوكستورف وغيرهم، فأكدوا بأنّ العبرية هي أقدم اللغات. ولذلك، زعموا بأن جميع أسماء الأعلام هي عبرية في أصلها. فلفظة (آدم) اشتق من (adamah) أي التراب وحواء) من (hawah) أي الحياة. وبما أنّ هذه الكلمات هي عبرية أصلاً. فانها- في اعتقادهم - قد نسيت إلى أهلها في زمن وجودهم⁵. ولكن هل يمكن ان نسلم بهذا الطرح الذي رده كثير من أبناء جلدتهم أنفسهم؟ ومما لاشك فيه أن اللغة العربية بناء عجيب معجز لم ينته العلماء من حصر رقعة الفسحة الجامعة وعرضته العريضة

⁵ Encyclopedie moderne : léon renier – publication firmin didot freres-Paris 1848-
thème : HEBREU- p 226 .

وبحر عارم لا يزال الباحثون يسبحون بين موجاته، بغرض تحديد أطرافه والاهتداء إلى أسرارهِ. ولا تزال جوانب كثيرة منه تنتظر من يولي الاهتمام إليها بالقدر الذي تستحقه ويلائمها وبالمكانة التي تحتلها في الدراسات اللغوية عموماً والنحوية بوجه خاص، اهتماماً يقوم على دراسة خاضعة للرصد العلمي الدقيق والنظرة العميقة الشاملة.

إنّ حلقة البحث اللغوي تتسع لهذا الموروث العربي برحابة كاملة على قدر العطاء الإنساني الذي ورثته الأمة الإسلامية في مسافاتها الزمنية عبر عصور الإخصاب والنجابة منذ ان تحددت لهذه الأمة معالمها بدعائم التوحيد لكيانها في، الهدف والمسلك والفكر واللسان، فعرف الفكر تجدداً في أطر القرآن الكريم الذي استهدف هندسة حياة الغرد والجماعة، فأمتنا من اللحن وقربها منه بنفحات الإعجاز في اللغظ والمعنى وصفاء الفكر في الرمز والإيحاء وجودة البنية في الصوت والجرس واعتدال الهيئة في الإيقاع والنغم. فامتدت هذه اللغة وتشعبت تصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها وجولانها في اشتقاقاتها ومأخذها البديعة في استعارتها وخرائب تصنفها في اختصاراتها وأفانين القول في أكناف مقاصدها.

ومن المعلوم أن اللغات العالية تتيم بقانون التطور، فمنها ما يتحمل

صرامة

هذا القانون ويجاريه ويتكيف مع قيوده المنبعثة من الحياة والمجتمع ومنها ما يرضخ تحت نير هذه القيود، فلا يقدر على الصمود والمواجهة فيفقد بعض خصوصياته أثناء مراحل حياته.

وإذا كانت عملية الاتصال غاية من الغايات السامية التي تهدف إليها اللغة، فلا بد ان تكون هذه اللغة في خدمة المجتمع الذي يستعملها ولا بدّ أيضاً أن تحمل بين أحضانها وسائل ملائمة تساعد أفراد هذا المجتمع على تحقيق

تلك الغاية.

وقد تفاعلت اللغة العربية عبر مختلف عصورها مع لغات أخرى واحتكت بها بطرق متنوعة ولكنها تمكنت من صيانة خصائصها الإعرابية وصيغ عددها ودلالات زمنها وأحكام اشتقاقاتها وهو ما دفع ببعض العقول الأوروبية المنصفة إلى الإقرار بأن العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها.

وانه تكاد لا تعدلها في ذلك أية لغة سامية أخرى. ويرجعون ذلك إلى نشأتها في أقدم موطن للساميين ثم لبقائها منعزلة، مما قلل من فرص احتكاكها باللغات الأخرى. ومن أجل هذا صرحوا بإمكان الاعتماد عليها في الجاهلية لمعرفة أهم خصائص اللغة السامية الأم⁶.

ومن هنا تبطل مزاعم هؤلاء الباحثين برفض ادعاءاتهم في أن العبرية أثرت في العربية. وهل يعقل التسليم بأن العرب اقتبسوا ألفاظ من العبرية ولم تظهر الدراسات اللغوية عموماً والنحوية بوجه خاص في هذه اللغة الأخيرة إلا في القرن العاشر الميلادي؟ وهل يجوز القول بهذا التأثير والشهور عند أهل العلم أن اللغويين العبريين هم الذين أخذوا، خلال هذه الفترة، النحو العربي والنحاة العرب مثلاً حياً لأعمالهم؟ فشرعوا في استنباط القواعد النحوية العبرية مقلدين النحاة العرب في أصول تفكيرهم النحوي وفي مناهجهم المختلفة وطرق استقراء لغتهم⁷. إن هذا الرأي ليس مجرد تخمين أملتة عاطفة جياشة تجاه العربية وإنما هو واقع اعترف به علماء اليهود أنفسهم.

لقد ظهرت الدراسات الأولى حول النحو العبري في القرن العاشر الميلادي.

⁶ اللغة العبرية وآدابها: د محمد التونجي دار الجليل 1983 ص 16.
⁷ التنشئة في اللغات السامية د تيجني بن عيسى رسالة الدكتوراه 1998 ص 170.

وهي مرحلة امتنت من ظهور الأعمال التي قام بها الغيلسوف اللغوي العبري سعديا غيون (SAADYE GAAYON) واسمه سعد بن يوسف الفيومي وانتهت بأبحاث اللغوي جون بكستورف (JEAN BUXTORF) الأكبر. واتخذ الباحثون اللغويون خلال هذه الفترة النحو العربي والنحاة العرب قدوة حسنة لمهتهم، فشرعوا في استنباط القواعد اللغوية العبرية مقتفين أثر العرب في طرق تفكيرهم النحوي وفي مناهجهم المختلفة وأساليب استقراء لغتهم. ويرجع الفضل في تأثر اللغة العبرية باللغة العربية إلى شدة احتكاكها من الناحية الثقافية بالمؤلفات اللغوية والنحوية العربية التي نقلها علماء اليهود إلى العبرية خاصة أثناء وجودهم بالأندلس، فزادوا بذلك ثروة علمية لغتهم. والمستعرض لكتبهم النحوية واللغوية يجد الطابع العربي غازيا سواء في جانبه الفكري النظري أو الجانب العلمي التطبيقي كما يجد اعتراف نحاتهم باقتباس كثير من اسوم والعارف عن العرب وان لهؤلاء القوم فضلا كبيرا على نهضتهم اللغوية والنحوية. وبلغ هذا التأثير خنا جعل الباحثين السريين الأوائل أمثال سعديا غيون وخيوج (Hayyug) وابن جناح (Ibn ganah) يؤلفون كتبهم النحوية الأولى باللغة العربية ويضعون قواعد لغتهم النحوية والصرفية على غرار الكتب العربية.

ولعل الأمر الجيد الذي قاموا به في تأليفهم انهم كانوا يجرون مقارنات بينالعبرية والعربية حيث نجد عددا من المؤلفات قارن فيها أصحابها بين أجرومية العرب وأجرومية اليهود⁸. أو كما حدث لأمير الشعراء العبريين في القرون الوسطى يهوذا هاليفي الملقب بأبي الحسن اللاوي⁹ الذي ألف في

⁸ LE duel dans les langues sémitiques Charles Fontiony Paris les belles lettres 1969 p 142 .

⁹ اللغة العربية وآدابها: د محمد التونجي ص40.

الفلسفة الدينية كتابا مشهورا عنوانه (الخوزري)¹⁰ بالعربية الذي ترجم بعد ذلك إلى العبرية¹¹ .

والملاحظ أن بداية الحركة النحوية عند العبريين شارك فيها أيضا باحثون، مسيحيون. فقد نقل فونتينا عن المستشرق الألماني فوك (FUCK) قوله: "ان علم اللغة العبري الذي اشتق من مناهج النحاة العرب واستمد أسسه من نظرياتهم كان مصدراً إيجابياً حاسماً للباحثين الغربيين الذين انكبوا على دراسة اللغة العبرية حتى القرن الخامس عشر الميلادي"¹².

وتميزت هذه الدراسات الأولى بملاحظات قيمة حول مقارنة اللغتين العربية فقد أحس.سعديا غيون بالصلة الوثيقة التي تربط هاتين اللغتين. وكان أول النحاة العبريين الذين وضعوا قواعد النحو العبري على غرار قواعد اللغة العربية في كتابه (ايجارون) ثم وضع كتابي اللغة العبرية وكتاب الفصاحة. ولم يتأثر سعديا بالعلوم اللغوية العربية فحسب، بل أخذ الكثير من العلوم الدينية فتشبعت روحه بمذهب المعتزلة. ويظهر هذا التأثير جليا في معالجته للديانة اليهودية¹³ . ويعده النحاة اليهود الأب الحقيقي للنحو العبري.

وارتكز دوناش بن لرباط (DONACH BEN LARBAT) على قرابة الألفاظ للاستدلال بها على أن العبرية هي العربية في وضعها الخالص الأول في حين أثبت يهودا بن قريش (YAHOUDA BEN QERRICH) (القرن التاسع والعاشر) بطرق علمية الصلة الوطيدة بين العربية والعبرية والآرامية. وقوي هذا الاهتمام أيضا عند الباحثين. لمتأخرين أمثال داود الكيمخي

¹⁰ ولد في طليطلة بالأندلس سنة 1080م.

يتضمن هذا الكتاب مقارنة بين الأديان السماوية الثلاثة جعلها يهود على شكل حوار بين عالم مسلم وحبر يهودي وكاهن نصراني.

¹² دروس في اللغة العربية د ربحي كمال ص 47..

¹³ ينظر دروس في اللغة العبرية ص 46.

(DAOUD KIMKHI)¹⁴.

ومن الواضح اننا لسنا هنا في سبيل إحصاء الدراسات حول النحو العبري أو تفصيل الحديث حول مسألة منه. وحسبنا أن نعرف أنّ العلماء العبريين الأوائل اعترفوا بالشبه الكبير الوجود بين اللغتين العربية والعبرية وأنهم استندوا إلى هذا الشبه في بناء قواعدهم اللغوية. ونا كان هذا الشبه قويا وواضحا بين اللغتين وكانت العبرية هي لغة الديانة اليهودية التي سبقت الإسلام، اعتقد معظم الباحثين في القرنين الماضيين بقدماها على العربية. وهذا استنباط خاطئ لا يقوم على أي دليل علمي ولا على أي تصور منطقي أمين. والدلائل على بطلانه قوية وكثير نورد أهمها:

1- إنّ تشابه بين هاتين اللغتين يندح في محيط ما يتشابه بين لغتين متفرعتين عن أصل واحد. وان ما نسبته الباحثون الأوروبيون من ألفاظ عربية إلى العبرية انما نقله الأخبار والعلماء اليهود - في الواقع - عن العربية في أقدم عصورها.

2- إنّ العالم الكبير غروتيوس (GROTIUS) صرح بأن العهدين القديم) والجديد (أي التوراة والإنجيل) تحتوي على أسماء لم يفسر اشتقاقها بعد. ولا يتأتى تفسيرها إلا بالاستناد إلى لفات شرقية أخرى (وهو تلميح صريح للغة العربية).

3- إنّ اللغة العبرية لم تكن لغة إبراهيم في بداية الأمر . فقد عاش مدة طويلة من عمره منتقلا بين بلاد الكلدانيين وميزوبوتاميا وفلسطين. وفي هذا البلد الأخير، أخذ يتكلم العبرية . ومعنى هذا ان اللغة العبرية لم تكن مكتملة منتشرة في ذلك الوقت الذي كانت اللغة العربية فيه - بلهجاتها المختلفة - سائدة وشائعة في كل أرجاء الجزيرة العربية.

¹⁴ les langues du monde a meillet et cohen 2eme edition paris p 17 .

4- إنَّ عددا هائلا من الألفاظ العبرية هي في الأصل عربية، مادة

وصيغة

وبنية. ومثال على ذلك (ABIMélek) أي أبي ملك، و (KERYATH)
(SEPHER) أي قرية السفر وهي مدينة الكتب والوثائق (ab) أي أب و (em)
أي أم و (feh) أي الغم، وكلها كلمات قديمة في العبرية.

5 - إنَّ تطور الأفكار الدينية والأخلاقية عند اليهود كانت الحافر

الأول

لتغيير لفهم بادماج مفردات وألفاظ واشتقاقات من العربية خاصة. فأصبح هنا
الإدماج خاصية من خصوصيات العبرية . ويجدر التذكير هنا بان تحرير العهد
القديم (أي ما يسمى عند اليهود بالتوراة) قد مر بفترة زمنية طويلة كان فيها
أخبار اليهود وعلمائهم في أمس الحاجة إلى قاموس لغوي ضخم يضحى لهم
سندا قويا ومنبعا لا ينصب لكتابة الأسفار الخمسة والكتب التاريخية وكتب
النبوة وكتب الشعر والحكمة¹⁵.

6- ان العبرية لا ترقى إلى سمو العربية اللغوي، وهذا باعتراف العلماء
الأوروبيين انفسهم، سواء من حيث جنور ألفاظها وصيغها أو من حيث أشكالها
واشتقاق أسمائها وأفعالها كما ان العربية تفوقها في الحروف الملحقة
بالكلمات¹⁶.

ومهما يكن من أمر، فان اللغة العربية، بما تحتوي من خصائص في لقواعد
والأحكام ما تتصف به من سعة المادة اللغوية في صياغتها وما تتميز به من
قابلية على احتواء الألفاظ الأجنبية، قد بلغت من الرقي والازدهار على نحو ما
هو منشور في المؤلفات والمصنفات والدواوين والشرح والتفسير ومقياس السمو

حول هذه المسألة الهامة ينظر التوراة والإنجيل والقرآن والعام لموريس بوكاي بيروت دار الكندي 1978
¹⁵ ص 15 وما بعدها.

¹⁶ Encyclopédie moderne Léon Renier p 266 .

بها إلى الدرجات العلى يتوقف على مدى شعور أبنائنا بمسؤولياتهم المقدسة تجاهها. وأنّ القول بأنها استلهمت أو اقتبست أو اشتقت ألفاظا بالعدد المزعوم، فهو قول ترده كثير من الدراسات الأجنبية الحديثة.